هذا ماظهر لنا في أجوبة هذه المسائل بناء على قواعد الفقه المشهورة المبنية على المعاملات القضائية وأشرنا الى ان المتدينين يتعاملون فيما بينهم بالصدق والوفاء بالوعود فهم لايختلفون اذا كان ماتعاقدوا أو تعاهدوا عليه صريحا مرضيا بينهم وقد ثبت في الكتاب والسنة وجوب الوفاء بالعقود التي يتعاقد الناس عليها برضاهم وعمل المسلمين بشروطهم الا شرطا أحل حراماً أو حرم حلالا والمحرم في العقود هو الغش والخداع والغرر وكل حيلة يأكل بها الانسان مال الآخر بالباطل. وقد شدد بعض الفقهاء كالحنفية في العقود والشروط ووسع فيها بعض الحنابلة وفقهاء الحديث والذي حققه ابن تيمية بالدلائل القوية هو ان كل عقد وكل شرط لايخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) فهو جائز والوفاء به واجب سواء اقتضاه العقد أم لا . وهذا مانراه ولا نحب ان نطيل في المنار في مسائل المعاملات الفقهية لأن غرضنا مما ننشره من الاحكام العلمية في باب الفتاوى وغيره هو بيان عدل شريعتنا وموافقتها لمصالح الناس في كل زمان ومكان للرد على الطاعنين فيها وتمكين عقائد الجاهلين من أهلها ، وبيان المسائل الدينية المحضة وحكمها للعلة المذكورة آنفا

المسلمون والقبط

(١)

إنما بقاء الامم والملل بمقوماتها التي تمتاز بها عن غيرها فاذا قصر افرادها في التماسك والاعتصام بالمحافظة على تلك المقومات وما يتبعها من المشخصات زالت الأمة أو الملة بانقراض أهلها أو اندغامهم في أمة أخرى

مضت سنة الله في البشر بمحافظة كل قوم على مقوماتهم ومشخصاتهم وحرصهم عليها بقدر ارتقائهم في حياتهم الاجتماعية فالامة الحية المستقلة لاتتبع أمة اخرى ولا تقلدها في دينها ولا عاداتها ولا تقاليدها ، ومثلها في ذلك كمثل الافراد فالعالم المستقل لايتقلد رأي غيره وان كان مثله أو أعلم منه وانما يعمل بما يظهر له انه الصواب لا بما يظهر لغيره

يتعصب بعض الشعوب لما هم عليه وان ثبت لهم ان المخالف لهم فيه أولى بالصواب

واجدر بالاتباع كما يتعصب الانكليز لمقاييسهم ويأبون اتباع الفرنسيين وغيرهم في المقاييس العشرية التي هي خير منها . فاذا ثبت لهم ان ماهم عليه ضار بهم أو متقدم لغيرهم عليهم تبدلوا به غيره بالتدريج البطيء لئلا تتزلزل مقومات الأمة أو مشخصاتها فيضعف تماسكها وتشعر بعلو غيرها عليها

كان المكونون للأمم يراعون هذه السنن فيها حتى ان رؤساء النصارى لما أرادوا فصل اتباع المصلح العظيم لليهودية (عيسى عليه السلام) من قومه اليهود تركوا من تعاليم الناموس (التوراة) ما اقره المسيح ولم ينقضه كالراحة في يوم السبت والامتناع عن عمل الدنيا فيه واستبدلوا به يوم الأحد بغير أمر من المسيح ولا من حوارييه ، ووضعوا لهم غير ذلك من العبادات والاعياد حتى صارت ملتهم من أبعد الملل عن اليهودية . كذلك فعل المصلح الاعظم خاتم النبيين (صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين) بما كان يأمر به من مخالفة أهل الكتاب وغيرهم في عاداتهم وتقاليدهم زائدا ذلك مما جاء به الوحي من الاصلاح في اصول دين الله وفروعه ، والحكمة في ذلك تكوين الأمة وامتيازها بما تكون به قدوة لغيرها لا تابعة مقلدة

كذلك مضت سنة الله في البشر بتقليد الضعيف للقوي وتشبهه به فيما يسهل التقليد والتشبه فيه سواء ذلك في الافراد والأمم ، وانما السنة فيه أن يكون بالتدريج والانتقال من محقرات الامور كالأزياء والعادات الى مافوقها حتى ينتهي بأعظم المقومات التي بها التمايز كاللغات والمذاهب والأديان ، ولولا التعارض بين داعيتي التقليد والاستقلال لكان أمر البشر على غير ما نشهد الآن ، فاما ان يكون كل منهم مقلدا لمن قبله فيكونون كالأنعام ، واما ان يكون كل منهم مستقلا في كل شيء فلا يكادون يشتركون في شيء يجمع بينهم ، ويرى بعض الحكماء انه يجب التأليف بين جميع البشر واتحادهم وما هذا بالذي يتم وغاية ما يرجى من الكمال أن يتعارفوا ولا يتناكروا في اختلافهم كما أرشد القرآن

كان أمر الناس في الزمان الماضي متروكا الى طبيعة الاجتماع تعمل عملها بسنن الله تعالى فيهم وهم لا يشعرون بسيرها فيساعدوها عليه أو يقاوموها فيه بالطرق العلمية الا ما كان من الحروب التي توقد نيرانها مطامع الاقوياء ، وقد اتسع نطاق علم الاجتماع في هذا العصر فصارت الأمم العالمة المتحدة تفضل قوة العلم على قوة السلاح في محاربة الأمم الجاهلة المتخاذلة ، فتسطو على مقوماتها ومشخصاتها من الدين واللغة والتقاليد والعادات فتزلزلها وتزيل ثقتها بها بالتدريج وتزين لها أن تتبدل بها ما تخيل اليها أنه خير

منه فتزيدها بذلك ضعفا ومرضا حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين إما بالاستعباد وذهاب الاستقلال ، وإما بالاندغام والاضمحلال

هذا هو السبب في بث الافرنج دعاة دينهم وفي بنائهم المدارس في البلاد الاسلامية وغيرها وفي اتخاذهم الوسائل الى بث لغاتهم وآرائهم وعاداتهم في مدارسنا حتى صارت نفوس ناشئتنا في البلاد المقيدة لمدنيتهم في تصرف الاساتذة من الافرنج والمتفرنجين ينقشون فيها من الافكار ويطبعون فيها من الملكات ما يغير نظام الاجتماع في بلادنا ويجذب أموالها وميولها اليهم حتى يكون أهلها عالة عليهم أو خدما لهم في كل شيء الى ان تصير ملكا خالصا لهم في الحقيقة دون الاسم أو في الامرين معا ، وقد صرح لورد كرومر في بعض تقاريره عن مصر بأن الغرض من مدارس الحكومة فيها فرنجة المصريين ، فهل اعتبر بهذا القول أحد من القارئين ، أو نبه عليه أحد من السياسيين؟ وهو الذي ترتب عليه تقليد حكوماتنا لأوربا بغير اجتهاد ولا استقلال

لا أقول ما قلته ذما في الافرنج بل مدحا لهم فان هذه الطريقة هي أرقى ما وصل اليه البشر في الفتح والاستعمار ، واستيلاء الاقوياء على الضعفاء الذي هو من سنن الاجتماع ، فلهم في شرع العمران والفلسفة ان يجدوا ويجتهدوا في جذب جميع الامم الى دينهم ولغاتهم وعاداتهم ، وفي تسخيرها لخدمتهم ومنافعهم ، وانما عكن أن تلومهم الفلسفة انهم لا يرضون أن يساووا هؤلاء المجذوبين بأنفسهم ولا أن يرقوهم الى درجتهم ، فالشرقي عندهم لا يمكن ان يساوي الغربي وان اتبعه هذا في دينه ولغته وعاداته : والاسلام يفضلهم في هذه المسألة فهو قد سبقهم الى تلك الطريقة السلمية في جذب الناس اليه مع تقرير المساواة التامة بين المنجذبين اليه الداخلين فيه . لا فرق بين الملك العظيم (كجيلة بن الايهم) والصعلوك الفقير . ولا بين السيد الشريف الفاتح (كخالد بن الوليد) وبين الشيق الاسود (كبلال الحبشي) بل الاسلام يساوي بين المسلم وغير المسلم في الحقوق كما ساوى أعدل امرائه (عمر بن الخطاب) بين أكبر سيد فيه (علي بن أبي طالب) وبين رجل من آحاد اليهود . والانكليزي لا يساوي الهندي بنفسه ولا الفرنسي يساوي الجزائري بنفسه بل ميزوا أنفسهم علينا في عقر ديارنا وأرقى حكوماتنا

الافرنج أرقى منا في العلم والمدنية فنحن في حاجة الى أخذ الفنون والصناعات منهم بالاجتهاد والاستقلال مع المحافظة على مقوماتنا الملية والقومية التي تحول دون فنائنا فيهم ولكننا لم نأخذ منهم شيئا مما نحتاج اليه بالشرط الذي بيناه وانما سرى الينا ما سرى منهم بالتقليد لا بالاستقلال لذلك كان سببا لضعف استقلالنا أو ذهابه ،

لا رسوخه وثباته ، اللهم الا ما اقتبسته دولتنا العثمانية من فنون الحرب فلها استقلال واجتهاد ما فيه ، لعلمها بتوقف حياتها عليه ، ولم يكن استقلالها فيه تاماً لانها لا تزال عالة عليهم حتى في تعليم الجندفا بالك بصنع الاسلحة والآلات ، والبوارج المدرعات ، ولو تواطأت دول أوربا على منع بيع السلاح وآلات الحرب للدولة لقضين على قوتها بغير مقارعة ولا مكافحة

من آية استقلال الامة فيما تأخذه عن غيرها ، وما تدعه من عاداته التي هي عرضة لها ، أن يكون ذلك رأي زعمائها وعمل جمعياتها ، باسم الامة ولمصلحتها العامة ، ولسنا معاشر المسلمين على شيء من هذا الاستقلال بل نحن مقلدون للافرنج حتى فيما نحسب اننا نهرب به من سيطرتهم كدعوة الوطنية التي كان الخسار فيها علينا والربح لغيرنا ، ومن الشواهد المحسوسة على ما ذكرنا من المقدمات ما يسمونه اليوم بالمسألة القبطية في مصر

* * *

سكان القطر المصري اثنا عشر مليونا منهم احد عشر مليونا ونيف من المسلمين ويزيد عدد القبط فيه عن نصف مليون والباقي من سائر الشعوب والملل ودخل بعض القبط في حماية الدول الاجنبية فلم يعد لهم من الحقوق ولا عليهم من التكاليف مثل ما للوطنيين وعليهم ، والمشهور أن نسبة القبط الى المسلمين في هذا القطر هي نسبة ستة الى مئة

في هذه الفئة القليلة من الحياة الملية ما ليس في تلك الفئة الكثير العدد ، صاحبة الحق في الملك والسؤدد ، لان الحاكم العام منهم ، وهو صاحب التصرف المطلق في ادارة بلادهم ، التابعة في السياسة والسلطة لخليفتهم ، ولغة الحكومة والامة هي لغة دينهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم ، ولا سلطتهم ولا شكل حكومتهم ولا تبعيتهم لخليفتهم من شيء لما قامت القبط تنازعهم ما في أيديهم فتنزعه شيئاً بعد شيء بالسير على سنة الكون ونظام الاجتماع . فما أجدر القبط في سيرتهم هذه بالفخر والاعجاب

ليس لمسلمي مصر جمعيات دينية محضة ولا مجلس ملي اسلامي للقبط كما وغيرهم ، ليس لهم أندية اسلامية خاصة بهم من حيث هم مسلمون ، ليس لهم جرائد ولا مجلات دينية محضة كجرائد غيرهم ومجلاتهم ، لا يوجد فيهم أفراد ولا جماعات ينظرون في أمورهم الاجتماعية ونسبتهم فيها الى غيرهم ويعملون عملا ما لمسابقة غيرهم أو مزاحمته في أعمال الحكومة أو الاعمال المالية أو الادبية ، الجرائد السياسية لغير المسلمين تروج عند المسلمين وجرائد المسلمين لا تروج عند القبط ، والمسلمون يعلمون ذلك ولا يحركهم نعرة عصبية ، ولا غيرة ملية ، وما ذلك الا من بقايا ما ورثوا من أخلاق دينهم من صفاء القلب والتساهل

أما القبط فانهم يعملون كل شيء للقبط باسم القبط ويعبرون عن أنفسهم بالامة القبطية ويسمون البلاد المصرية بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم ولهم مجلس ملي وجمعيات وأندية وجرائد ومجلات قبطية محضة ويطلبون مايطلبون من المناصب والاعمال في الحكومة للقبط باسم القبط على أنها حق للقبط من حيث انهم قبط ، ويتعاونون في جميع مصالح الحكومة فيفضل القبطي أخاه القبطي على غيره لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، ولاشيء عند المسلمين من هذا التعاون والتكافل ، على ان البلاد بلادهم وليس للقبط فيها مزية على غيرهم من النصارى واليهود الا بتمييز المسلمين لهم ثم انهم يتهمون المسلمين بالتعصب الذميم والتحامل وهضم حقوقهم فرحى للقبط المتعاونين ، ويا حسرة على المسلمين المتخاذلين

ان معظم أعمال الحكومة المصرية ومصالحها في أيدي القبط ولا يمتاز المسلمون عليهم الا بقليل من المناصب الرئيسية التي لاحظ لهم منها غير الفخفخة والتحلي بكساوى التشريف والاوسمة ، فالمديرون على قلتهم من المسلمين وكثيرا مايكونون من غير الاكفاء المختبرين ، وينقلون من مديرية الى أخرى ، ورؤساء الكتاب وأكثر العمال الذين تحت أيديهم من القبط ثابتون في أعمالهم عارفون بقوادمها وخوافيها متكافلون في الاستئثار بها ولذلك يكون أكثر المديرين آلات في أيديهم لايقدر أعلاهم كفاءة أن يخالف رئيس الكتاب القبطي في شيء يريده لان العمال في المديرية وأكثرهم من القبط يتعصبون حينئذ على المدير ويعرقلون أعماله ويوقعونه في المشكلات مع نظارة الداخلية أو نظارة المالية وينصرهم اخوانهم في النظارة عليه لانهم كلهم يد على من عداهم وعلى هذا القياس تناصرهم في القضاء وسائر المصالح . ثم انهم يزعمون مع هذا كله انهم مظلومون مهضومون ، وان المسلمين هم المتعصبون الظالمون . فرحى للقبط المتحدين ، ويا حسرة على المسلمين المتفرقين

هذا ما كانت عليه الفئة الكثيرة بالعدد القليلة بالتخاذل والغفلة ، والفئة القليلة الكثيرة بالتعاون والوحدة ، وهذا هو الذي أطمع القبط في جعل حكومة مصر قبطية محضة في يوم من الايام ، وكان من حسن حظهم أن فتن الباحثون في الامور العامة من المسلمين بالسياسة ، وجعلوا هجيراهم فيها دعوة الوطنية وصاروا يلهجون بهذه الكلمات : اخواننا القبط ، اخواننا القبط ، نحن مصريون قبل كل شيء ، لادين في الوطنية ، انما الدين في المساجد والكنائس ، وبلغ من لهجهم بالوطنية واخلاصهم فيها أن صار بعضهم يقول لافرق عندي بين أن يكون الخديوي مسلماً

أو قبطيا ، وانما المهم عندي أن يكون مصريا ، وقد سمعت مثل هذه الكلمة من بعض المدرسين في مدارس الحكومة العالية ، فقلت له وهل تظن فيمن سمحت لهم عاطفتك الوطنية بعرض الامارة أن يسمحوا لك بوظيفة (قومسير) في مصلحة سكة الحديد ؟؟ أما وسر العقل والبصيرة أنهم لا يسمحون بذلك مختارين ، وما هم على ذلك عندي بملومين ، فمرحى للقبط المتعصبين ، ويا حسرة على المسلمين المتساهلين .

* * *

سبق لي مدح القبط في المنار غير مرة وتفضيلهم على المسلمين بالتعاون والتناصر وأرابطة المليه وان فاقوا المسلمين في الكفاءة الشخصية الا التملق الذي يستميلون به الرؤساء واتباعهم في ذلك طريقة العقل والحزم وسنن الاجتماع التي أشرنا اليها في فاتحة القول بترك المسلمين بين عامل خامل ، وزكي يائس ، ونشيط مغرور شغله الكلام في مقاومة الاحتلال عن كل عمل تقوى به الامة في وجه الاحتلال (وهو عندي محصور في التربية المليّة والاعمال الاقتصادية كما بينت ذلك مرارا) وتوجيه همتهم في هذه الفرصة الى التربية القبطية والتعليم ، وتنمية الثروة ، والتغلغل في أعمال الحكومة ، ولكنني أنكرت عليهم في هاتين السنتين سيرتهم فرأيتهم قد تركوا ماعهدت فيهم من الهدوء والسكينة ، واللين والتملق ، وطفقوا يطعنون في جرائدهم طعنا صريحا في سلف المسلمين وخلفهم ، ودينهم وآدابهم ولغتهم ، فعجبت من هذه الطريقة الجديدة ، التي يخشى أن تعلم المسلمين التعصب والمقاومة ، فتكون كرة القبط هي الخاسرة ، وصرت أقول في نفسي ماعدا مما بدا ، وأقدح زناد الفكر لعلي أجد على النار هدى

لو صبروا على جدهم وتعاونهم ، وتركوا المسلمين في غفلتهم وتخاذلهم ، لنالوا كل ماأملوا ، ولساعدوهم باسم الوطنية على ما أرادوا . يريدون أن يثبوا على الوظائف الادارية العالية كما وثبوا في القضاء ، يريدون أن تترك الحكومة العمل في يوم الاحد . يريدون أن تدرس الديانة المسيحية في الكتاتيب والمدارس كلها . يريدون ألا يكون للمسلمين في هذه الحكومة مزية ما . كل هذا كان سهلا اذا رضوا بسنة التدريج والمسلمون أنفسهم يساعدونهم على كل ذلك حتى اذا نالوه سهل عليهم أن يجعلوا الحكومة وقفا عليهم ويمنعوا المسلمين منها ألبتة

أليس بعض كتاب المسلمين يهنئون في جرائد الاحزاب القوية ، كل من يرتقي من المسلمين الى منصب عال في الحكومة ، ويعدونه خائنا لوطنه ، مشايعا للانكليز فيه ، بقدر ما يعظم القبط كبار الموظفين منهم ، ويستعينون بهم على سعة نفوذهم في الحكومة ؟

أليس هذا تمهيداً لنيل القبط هذه البقية القليلة من الوظائف ؟ ألم يساعدهم الوزراء المسلمون على ماطلبوا من تعليم دينهم في مدارس الحكومة (وهو مالا نظير له في حكومات الارض) ؟ بلى وكذلك يساعدهم المسلمون في فرصة أخرى على كل مايطلبون. واذا هم نالوا بقية الوظائف الرئيسة وتمكنوا بها من جعل تسعة أعشار الموظفين منهم يكون لهم الوجه الوجيه في طلب ابطال الاعمال يوم الاحد دون يوم الجمعة ولا يجرأ مسلم يومئذ أن يفتح فما ، أو يحرك قلما ، خوفا من تهمة التعصب الديني من جهة ، ومن تحامل الحكومة القبطية عليه من جهة أخرى

هذا ماأقوله معتقدا له ولاشك فيه عندي ، ولذلك عجبت كيف خانهم الصبر ، وفاتهم ادراك هذا الامر ، وحرت في تعليل هذا المسلك الجديد ، حتى كان مما خطر في بالي انهم ربما كانوا يريدون إحراج المسلمين لاحداث فتنة في البلاد تكون وسيلة لاعلان انكلترا الحماية عليها أو ضمها الى مستعمراتها . ولم أصدق مايقوله بعض الناس من انهم أحسوا من المسلمين ضعفا ووجدوا فرصة لاخراج أضغانهم ، وشفاء غليل حقدهم ، ففعلوا ذلك لمجرد اللذة بايذاء من كانوا يستثقلون اسم سيادتهم عليهم ، لاأرى هذا القول ولا ذلك الخاطر بالمعقول ، وانما هناك سبب آخر نشرحه في النبذة التالية. ثم نبين شكل هذه الحكومة الرسمي وهل للقبط حق فيها أم لا ثم مسألة يوم الراحة الاسبوعية في الاديان الثلاثة وما ينبغي أن يكون الحال عليه في مصر (للمقال بقية)

جماعة الدعوة والإرشاد

يد الله على الجماعة (حديث شريف)

النظام الاساسي للجماعة

اخترنا ان نوقع هذا النظام المبارك في ليلة المولد النبوي الشريف (وهي في الحقيقة ٩ ربيع الأول) تيمنا وتفاؤلا وان نذيعه في صبيحة اليوم الذي يحتفل في ليلته بتذكار تلك السعادة أي ١٢ ربيع الاول وقد تأخر هذا الجزء من المنار